مستقبل الثقافة العراقية
في ظل الانفتاح العالمي
ـ النجف مثالاً ـ

الأستاذ المساعد الدكتور
عباس علي الفحام
كلية التربية الأساسية ـ جامعة الكوفة

مستقبل الثقافة العراقية في ظل الانفتاح العالمي النجف مثالاً

الأستاذ المساعد الدكتور
عباس علي الفحام
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المقدمة:ـ

لا شك في أن المشاركة في المؤتمرات فرصة رائعة لتبادل الخبرات والمعارف، وليس مجرد تبيان حقيقة علمية ما، ولعل الكتابة في قضايا الثقافة تتيح لنا فضاءً واسعا من البحث العلمي ونقد الذات، ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان (مستقبل الثقافة العراقية في ظل الانفتاح العالمي) واتخذت من مدينتي النجف مثالا لهذا المستقبل لسببين: الأول: كونها مركزا دينيا عريقا وثقافيا متنوعا مهما في الإنجاز الثقافي العراقي والإقليمي له تأثيره الواضح. وثانيا: بوصفي ابن هذه المدينة وأعرف بشؤونها - وأهل مكة أدرى بشعابها - على الرغم من أن ذلك ليس أمر هينا بسبب المثالية الدينية التي نشأنا عليها، تلك المثالية التي قد تضعنا في عزلة عما يدور من حولنا من متغيرات كثيرة سوف تمس مجتمعنا يوما ما. على أية حال حاولت قدر استطاعتي أن أكون موضوعيا في دراستي فحصرت من مظاهر الثقافة المعاصرة ما يمكن أن يكون عقبات أمام تطور هذه المدينة وحددتها بأربعة مظاهر أو تحديات هي على التوالي بحسب خطورتها:

أولاً: العولمة

ثانياً: الانفتاح على الآخر

ثالثاً: التقليدية والعلوم المعاصرة

رابعاً: البناء والعمران

هذا وقد شملت الدراسة تمهيدا عرضت فيه الطبيعة العالمية لهذه المدينة المقدسة في نفوس المسلمين من جهة ضمها رجلا يحبه المسلمون جميعهم ويجلونه، وهو بعد يعد في نظرهم الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين، فضلا عن تولي باقي المسلمين من الجمهور الشيعي له واعتقادهم بإمامته وتقديسهم له، ومن جهة اتخاذ النجف مدفنا لمحبي الإمام علي من كل بقاع المعمورة.

هذا البحث محاولة موضوعية نقدية عسى أن ننجح في تجلية حقائقه، فإن وفقنا في ذلك فمن الله التوفيق وإن بان نقصه فمنا القصور وعلى الله المستعان.

التمهيد:ـ

عالمية النجف وثقافتها

النجف هضبة عالية تحيطها من جهة الغرب البحر ومن جهة الشرق البر، وتقع في الوسط الغربي لحوض الفرات، وتعني في اللغة: التل أو شبهه، قال الزبيدي في تاج العروس: ((النجف والنجفة مسناة بظاهر الكوفة تمنع ماء السيل أن يعل ومقابرها ومنازلها،.. والنجف قرية على باب الكوفة، قال إسحق بن إبراهيم الموصلي:

ما إن رأى الناس في سهل وفي جبل ... أصفى هواء ولا أغذي من النجف

كأن تربته مسك يفوح به ... أو عنبر دافها لعطار في صدف

.. وهي قشور الصلبان))[1].

وتبدي الدراسات العلمية المحققة أن هذه المدينة مرسى سفينة نوح عليه السلام[2]. وهي بعد مدينة عربية عراقية ضاربة جذورها في تاريخ الحضارة الإنسانية يمكن تجليه من أسمائها المتعددة التي تحكي قصة ماض مزدهر لهذه المدينة، فاسمها القديم بانيقيا - كما ذكر الحموي وتعني المائة نعجة في النبطية - وكان

إبراهيم عليه السلام في مسيره نحو بناء بيت الله الحرام قد مر بأهلها، فأمنوا ليلة مبيته عندهم، وكان يزلزل بهم كل ليلة إلا ليلة مبيت النبي إبراهيم بينهم، فطلبوا منه المكوث عندهم، فرفض واشتراها بمائة شاة والشاة تعني(نقيا) و(با) تعني المائة في لغتهم، واشترط على أهلها أن يتخذوها دار ضيافة للعابرين المسافرين[٣].

ومن أسمائها الذكوات البيض وخد العذراء، وذكر أنها قديما كانت قبل الإسلام تعد ضمن حضارة الحيرة، ومكانا لدور العبادة، فانتشرت فيها الأديرة وأسماؤها محفورة في ذاكرة تاريخها ((وأهلها في ذلك العهد عند شيوع النصرانية نصارى من النسطورية، وهم من العرب الأقحاح، ولم تزل بعض الأديرة موجودة فيه حتى بعد انتشار الإسلام وعلو شوكته منها ما هو في النجف ومنها ما هو مشرف عليها كدير مارتمريم وهو دير قديم مشرف على النجف))[٤]، وقد تغنى بتلك الأديرة الشعراء قديما وحديثا كقول الثرواني وهو شاعر ماجن لازم أديرة النصارى في الحيرة ووصف أعيادهم ورهبانهم[٥]:

بمارتمريم الكبرى وظل فنائها فقف

فقصر أبي الخصيب المشرف المويق على النجف

فأكناف الخورنق والسدير ملاعب السلف

إلى النخل المكمم والحمائم فوقه الهتف

وكقول أبي نؤاس واصفا دير حنة من بعض أديرة الحيرة التي يقصدها المجان بقوله[٦]:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي

ومن الشعراء المحدثين قول الشيخ الوائلي متغنيا بالنجف[٧]:

وللـــدوالي بأربـــاض الســـدير بهـــا طيـف مـن ابـن عـدي أو سـرى دعـد

وديـــر هنـــد وقـــد مـــرت كواعبـــه تمشـــي إلى الكـــرح في دل وفي أود

حيـث الشـعانين تسـتهدي مواكبـه طريقـــها بنـــهود للســـما نهـــد

وحين جاء الإسلام أصبحت هذه المدينة مكانا لمدافن الموتى فكانت تسمى جبانة الكوفة أو ظهر الكوفة، وكتب تاريخها من جديد حين اتخذ الإمام علي عليه السلام الكوفة عاصمة لخلافته حيث أنصاره المخلصون منها على الرغم من شدة الفتن المحقة بأهلها وقد سجلت تاريخا متذبذبا في ذلك كله.

ولا ريب في أن الكوفة بعد ذلك أصبحت من الأمصار الإسلامية المهمة في مختلف العلوم العربية والفقهية والعلوم التجريبية كالكيمياء وظهر منها علماء كبار رفدوا الإنسانية بشكل عام والإسلام بشكل خاص فيما ذكرنا من مختلف العلوم. ومنذ وصية الإمام علي عليه السلام بأن يتخذ من أرض النجف مدفنا سريا له عام (٤٠) للهجرة حتى أصبحت أرضا لمقامات الأئمة من ولده عليه السلام كالإمام علي بن الحسين والإمام الباقر والإمام الصادق عليه السلام، حتى إذا اكتشف قبر الإمام علي عليه السلام زمن هارون الرشيد في الربع الأخير من القرن الثاني أمست لهذه البقعة دالة عظيمة لاذ بجوارها الناس فاتخذوها مسكنا ومدفنا تقربا واحتسابا، وفي القرن الرابع الهجري هاجر إليها الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) شيخ الطائفة فجعل منها مقرا لبث علوم الفقه الجعفري ومنذ ذلك التاريخ والنجف مقر دائم لنشر علوم أهل البيت وفقهه وأصبحت من المنارات العلمية التي وهبها الله تعالى لهذه البقعة المباركة. وهكذا أعطيت زخما جديدا من الحياة تمثل الأول بقبر أمير المؤمنين عليه السلام والثاني بوجود المنبر الدائم لتدريس علم أهل البيت ونشر ثقافتهم وسمي بالحوزة العلمية الشريفة.والنجف اليوم

اكتسبت لذلك بعدا عالميا لافتا للأنظار، بسبب بعدها عن التطرف و التعصب الأعمى، مع شدة محافظتها على الثوابت الإسلامية المتمثلة بفقه أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم المحمودة لدى جميع المسلمين، فكان الخطاب الديني المتمثل بالمراجع الدينية العليا يتسم دائما بالوفاق الإسلامي وقيم التسامح وقبول الرأي الآخر ويرحب بالحوار العلمي الهادف دائما من الأديان والمذاهب الأخرى مهما بدا متقاطعا مع الثابت النجفي، وهو بعد أي الخطاب الديني يتفاعل كثيرا مع هموم العالم الإسلامي وأحداثه وفي ذلك كله شهادات كثيرة وفتاوى مسجلة.

إن مقومات عالمية النجف تتضح - إذن - مما امتلكت من شواهد مادية ومعنوية حية يمكن حصرها بالنقاط الآتية:

١- المرقد العلوي الطاهر المقدس لجميع المسلمين وغير المسلمين.

٢- وجود مقر الحوزة العلمية والمرجعية العليا فيها لطائفة المسلمين الشيعة.

٣- مقبرة وادي السلام وهي الأضخم والأقدم في العالم، وقد ضمت الملوك والأمراء من شتى العصور ومن مختلف بقاع الدنيا.

٤- منبع النوابغ العظماء في مجال الفقه والأدب واللغة وعلى طول تاريخها قديما وحديثا وانتشارهم في بقاع الأرض بشكل مؤثر وفاعل.

٥- تفشي قيم الأصالة والتسامح في الخطاب الديني الملتزم لدى علماء هذه المدينة وأبنائها.

٦- ديمومة السياحة الدينية فيها يجعلها مقصد الكثيرين من الناس من مختلف بلدان العالم.

مظاهر الثقافة المعاصرة:

تشكل مظاهر الثقافة المعاصرة اليوم جملة من التحديات أمام الواقع النجفي يمكن حصرها بما يأتي:

أولاً: العولمة

العولمة (globalization) بكل بساطة هي ظاهرة التوحد الاقتصادي الثقافي التي يشهدها عالم اليوم، مع عدم إغفال بقية النواحي، من سياسية واجتماعية، ولكن التوحد الثقافي الاقتصادي يبقى هو الأبرز، ونقول يشهدها عالم اليوم، لأن الثورة التقنية الأخيرة، أو الثورة الثالثة في تاريخ البشرية، في وسائل الاتصالات والمعلومات جعلت من العولمة ظاهرة واضحة للعيان أكثر من أي وقت مضى.[٨]

ولا ريب في أن العولمة نتاج معرفي توج به اليوم الجهد الإنساني الحثيث، جعل العالم قريبا من بعضه كأشد ما يكون، ذلك القرب الذي شمل مناحي الحياة جميعها لبني البشر من تجارة وسياسة ومال وأعمال ومعارف وعلوم، وهي تطرح نفسها على أساس أنها تقوية أواصر الترابط العالمي[٩]، وما يهمني من العولمة التي أعنيها تحديا في بحثنا هذا هي القضية الأخيرة - المعارف والعلوم - وبضمنها قضايا الحداثة وتفاصيلها المتشعبة، ولن أقف عند قضية الأيدلوجيات الرأسمالية العالمية التي ربما تبتغي من هذا النظام الجديد فرض نفسها بديلا للأنظمة الأخرى أو ما تتهم به العولمة دائما من الهدف من شيوعها في ابتلاع الدول الكبيرة للدول الصغيرة بجعلها تابعة لها بكل شيء وبالتالي سوقا دائمة لتصريف بضاعتها من فرضية ((أن العالم سوق واحدة))[١٠]، وعلى أي حال في هذا الموضوع جدل كبير ليس هذا أوانه، فأقول:

تطرح العولمة في عالم اليوم نظاما مفتوحا من التواصل المعرفي والإنساني على مختلف المستويات بين مدن العالم بلا قيود ودون حواجز، عابرة بذلك الحدود الصارمة والأيدلوجيات المحافظة لبعض الأنظمة والقوميات المنتشرة في بقاع العالم ولاسيما عالمنا في الشرق الأوسط، فهي تبيح المعلومة أنى كانت وليس في منطقها معنى للحظر، إذ تنبني فلسفتها على أساس أن العالم قرية كونية واحدة ذات فضاء واحد[١١]، ومن هنا يحق لكل فرد المشاركة في هذا الفضاء والانتفاع به لاسيما مع ابتكار وسيلة اتصال فضائية اسمها الانترنت وشبكات الاتصال الحديثة الأخرى. وفعلا أثبتت العولمة اليوم نفسها في هذا الشأن على وجه الخصوص نظام معرفيا وثقافيا تكاد تتنافس فيه العقول والطاقات العلمية المختلفة بشكل يمكن أن يعد في المستقبل القريب مقياسا لتطور المعرفة عند الحضارات المختلفة في المعمورة.

ولعل من بعض إشكالات العولمة اليوم بهذا النظام المفتوح تكمن في اختراقها للخصوصية، ففي العالم ثمة الكثير من الأيدلوجيات التي تحذر من هذا الاختراق وميل إلى المحافظة على تقاليدها وخصوصياتها سواء ذلك في تفاصيل حياتها الاجتماعية أو في معارفها وطقوسها الدينية محافظة منها على هويتها الثقافية، ومن هنا سر التحدي الذي يواجهنا في عالمنا المعاصر، والسؤال المهم هنا، أين نحن من ذلك كله ؟ هل أعددنا لهذا العالم الجديد ما نحصن به أنفسنا وندافع به عن معتقداتنا إن لم أقل لما نحاول الترويج من خلاله عن أيدلوجياتنا ؟ أم هل ارتضينا لأنفسنا السكون والنمطية التي شهرنا بها والانعزالية عما يحيط بنا من عالم جديد فرض نفسه علينا بقوة المعرفة والاتصالات الحديثة. تلك إشكالات كثيرة ومعقدة تخيم على مدينة كالنجف عاشت دهرا ضمن بلد عانى من الانعزال والانكفاء المتعمد عن العالم بفعل الحروب والسياسات المتخلفة غير المواكبة للتطور الحضاري، وأخطر ما

تواجهه الثقافات المنطوية على نفسها أو الثقافات المحافظة أو تلك التي أجبرت على الانعزال كما هو شاننا هو هذا الانفتاح المباشر على العالم، إذ ما زال الجيل الجديد من أبنائنا - على الجملة - غير محصن بعد بهويته وغير متعمق بالفكر الذي يعتقده عمقا يتيح له الدفاع عنه بقناعة الواعين المتعلمين لا بقناعة الوارثين، وتشير الإحصاءات المعتمدة في مجالات أكاديمية كثيرة إلى حجم الهوة بين شبابنا وبين الكتاب الذي هو أحد أهم مصادر المعرفة، فقد استعاض عنه النشء الجديد بكثير من وسائل اللهو الحديثة، كما أبدل المعرفة المصدرية بالمعرفة السماعية الشفوية ولذلك نشهد اليوم في كثير من الأحيان نقصا في المعلومة بكثير مما يدعي الشاب معرفته سواء بمسائل الاعتقادات أو في قضايا التاريخ التي يؤمن بها فضلا عن المادة العلمية التخصصية، وذلك أمر يمكن تلمسه ببساطة لاسيما لدينا في الأكاديميات وخبرتنا المتواضعة في التدريس الجامعي. ولا ريب في أن عالم اليوم خاضع لما شهد من تطور هائل في المجالات الصناعية والعلمية بمختلف أنواعها كما أن الحكم الفصل فيه تابع لميزان القوى والقفزات الكبيرة المرتبطة به في المجالات العسكرية والصحية والعلمية والفضائية وتكنولوجيا المعلومات المختلفة، ويمكن القول باختصار إن عالم اليوم المتطور عالم من صنع غيرنا بامتياز ولسنا من أهله ولا من صناعه لذلك نحن فيه أشبه بالغرباء وكل أمر غريب يسبب الحذر منه والتشكيك في آن معا. وذلك ما يجري معنا بالضبط، وهنا يتجلى التحدي واضحا، إذ أن عالم اليوم يتطلع الى الغد دائما ويكاد يفقد صلته بالماضي وتاريخه بعكسنا تماما، نحن الذين نجتر الماضي دائما ونضع تاريخه نصب أعيننا في نظرنا إلى المستقبل، والفرق بين الأيدلوجيتين بين، وميزان الترجيح واضح أيضا، وسر تخوفنا من الانفتاح على العالم هو ضياع الجيل الجديد الذي يعيش عالما ليس من صنع آبائه ويراد منه الانتماء إلى تاريخه والحفاظ على هويته من أي تأثير بالحضارات التي تسمى عند منظريه بالكافرة، إنه يشعر بتناقض غريب في

داخله، ولا أحد يسمح له بالبوح به أو المحاورة معه، بل تطلق عليه حزمة هائلة من الأوامر المقدسة باسم الدين والرب والتاريخ وعليه أن يطيعها ولو كان في ذلك صناعة ازدواج لشخصيته وشطر لذهنه ونفسيته. تلك وغيرها من المسكوت عنه ينبغي التصريح به ومجابهته لنحفظ على ما تبقى من جيلنا.

ولعل الكثيرين يعلمون إن في النجف خزينا معرفيا هائلا ومتراكما عبر مئات من السنين يصلح لأن ينهض حضارة معرفية شبه متكاملة، تتمثل بشخصيات وطنية بالغة التأثير في صناعة الوطن وبناء المواطنة مثلما تتجسد بزعامات دينية تشعبت معارفها في جذور العلم ولم تقتصر على الفقه وحده بل امتدت إلى الأدب واللغة والفلك والفلسفة وغيرها، وفي النجف ركام عظيم من الأثر الشعري التقليدي والعصري ففيها ((علاوة على الثروة العلمية الغزيرة - ثروة أدبية قيمة، هي ينبوع غزير، لا ساحل له ولا قرار، وعين للآداب فوارة، يمكن أن يرتوي منها أبناء الضاد، وأن يخلقوا منها للعراق كياناً أدبياً جديداً، يتناسب والعصر الحاضر، ويتفق والطراز الحديث.. وكل هذه الثروة والخزانة الغالية لا تحتاج إلا إلى قليل من الاعتناء والصقل والجلاء، لتبرز إلى القراء، والمتشوقين إلى هذه الآثار الثمينة، ولتخلق لنا جيلاً متأدباً، وطبقة من الأدباء كبرى، يرفعون رأس اللغة العربية في هذه الربوع ويجعلون لأبنائها مكانة سامية ومقاماً محموداً، تحسدها عليه الأمم، وتغبطها الشعوب.. لمدينة النجف - في الناحية الأدبية - خصائص وميزات قلما توجد في مدينة أخرى، فقد عجنت بالآداب، واختمرت به إلى درجة بعيدة جداً فإن يسرت وأين حللت، رأيت وسمعت ما يطربك ويعجبك، من نثر رائق، وشعر فائق، ونكات مستملحة، ونقد نزيه، علاوة على الذكاء الفطري المحس في سائر الطبقات في النجف))[١٢].

غير أن ذلك التراث المعرفي الكبير يحتاج إلى مزيد من التبويب والتنظيم،

لإخراجه إلى عالم اليوم، مثلما يحتاج إلى مزيد من الجرأة، لتشذيبه من المعارف المكرورة التي لا داعي لاجترارها وإعادتها، سواء ذلك في الفقه أو في علوم العربية الأخرى، إننا اليوم نحتاج الفقه والفلسفة الدينية واللغوية المواكبة لعصرنا وعندنا من ذلك الشيء الكثير كما في الربع الأخير من القرن الماضي في كتابي (فلسفتنا) و(اقتصادنا) للسيد محمد باقر الصدر واليوم مثل فتاوى السيد السيستاني المجموعة في كتاب (فقه الحضارة) للدكتور محمد حسين الصغير، وغير ذلك الكثير، ومن ذلك أيضا محاولاتنا لعقد مؤتمرات علمية نربط فيها قضايا اللغة وتعقيدات العصر كما في مؤتمر (اللغة العربية وقضايا العصر)[١٣] الذي عقد في جامعة الكوفة عام ٢٠١٠ م وقد تمخض عنه ثلاثة أجزاء شملت تختلف التحديات العصرية للغتنا وسبل معالجتها، وكذلك مؤتمر(القرآن الكريم وقضايا العصر) الذي انعقد في عام ٢٠١١م.

ثانياً: الانفتاح على الآخر

تبدو خطورة هذا التحدي وأهميته من النظرة النمطية السائدة للآخر على الطبيعة الدينية للنجف والتي تتهمه بالمحافظة الشديدة والمتطرفة في أحيان كثيرة بعده مركزا ومحورا للعالم الشيعي، تلك النظرة المعبأة كثيرا ضد ثقافة هذه المدينة القائمة أصلا على التسامح وقبول الآخر، لأنها تستمد تعاليم أهل البيت من آل النبي محمد ﷺ، وتستوحي روحه الإنسانية في أقواله وأفعاله نحو (الناس سواسية كأسنان المشط) و(كلكم لآدم وآدم من تراب) وأقوال الإمام علي عليه السلام نحو (الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) و(قيمة كل امرئ ما يحسنه) وفوق ذلك كله أخلاق القرآن العظيم نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [١٤] وقوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [١٥].

ولا شك في أن النظام السابق عمل كثيرا طوال عهود حكمه المظلم الممتد لأكثر من ثلاثة عقود على تشويه الثقافة النجفية وإقصائها وعزلها عن محيطها، فقد جند لذلك أشكالا مختلفة من الوسائل في الترهيب والترغيب معا، ومن قصر النظر الادعاء بأن أموال بعض الدول المناهضة للفكر الشيعي وحدها المسؤولة عن ذلك على الرغم من عدم تبرئتها من ذلك.

على أية حال السؤال الذي أود طرحه هنا هو: هل نحن متطرفون فعلا ولا ندري ؟ هل لدينا اليوم من الثغرات ما يمكن الآخرون منا في مثل هذه الادعاءات ؟ هل اليوم نحن بحاجة إلى مزيد من البرامج والدراسات العلمية التي تقربنا من الآخر وتزيد من انفتاحنا عليه ؟

تلك أسئلة ينبغي علينا إيجاد توضيحات لها بشكل موضوعي من باب انتقاد الذات ومراجعتها، إذ لا يكفي ما قدمنا من ولاء وانتماء لتعاليم أئمة أهل البيت عليهم السلام بقدر العمل عليها واتخاذها سلوكا يوميا نتبناه قانونا نسهر على تطبيقه ونحافظ عليه ونحاسب من يحاول اختراقه.

ومن المثل المشهور (رب ضارة نافعة) أحسب أن النجف أفادت كثيرا مما مر بالعراق من محن بعد عام ٢٠٠٣م إثر تغيير النظام الاستبدادي، إذ على الرغم من النزف الدموي المؤطر بإطار صراع الأيدلوجيات المذهبية الدينية إلا أن النجف خطفت بريق الأضواء في صنع القرار العراقي العقلاني المتمثل بالخطاب الديني المتزن المبتعد عن العنف والمتمثل بقبول الآخر والانفتاح عليه، ودليل ذلك كله في الفتاوى ومقابلات كبار مسؤولي العالم من الأمم المتحدة ودول المنطقة فضلا عن العراق الجديد مع المرجعية الدينية العليا التي يتزعمها السيد السيستاني. لقد شكل الخطاب النجفي في السنوات الأخيرة علامة فارقة في تاريخ الخطاب الإسلامي الحديث من حيث تبنيه للمقاومة السلمية للأجنبي الذي استهان بالمشاعر العراقية فحول اسمه من محرر للعراق إلى جهة محتلة

أفسدت ما صنع كثيرا من مبررات الإطاحة بالنظام الدكتاتوري السابق. وكذلك إشاعة ثقافة المودة والإخاء بين أبناء الطائفتين المسلمتين في الدين الواحد من جهة وبين أبناء المسلمين والمسيحيين من جهة ثانية والأقليات الأخرى في بلاد الرافدين. وعلى الرغم من الحيف الكبير الذي نال من الطائفة الكبرى للشعب العراقي وأعني بهم الشيعة وانتهاك مقدساتهم وقتل أبنائهم بعد الانتفاضة العظيمة ضد نظام صدام عام ١٩٩١م وما استتبعها من تغييب لمئات الآلاف من الشباب الذين ظهروا على شكل مقابر جماعية أذهلت العالم أجمع، وبعد التغيير عام ٢٠٠٣م وعلى الرغم من كثرة التفجيرات الانتحارية المذهبية التي وقع أكثرها في مناطق الشيعة وحصدت مئات الآلاف من الأبرياء ومنها اغتيال قادة الشيعة كالسيد محمد باقر الحكيم والسيد عز الدين سليم، وكان أعظمها فداحة كاد يجر البلد إلى حرب طائفية لا نهاية لها إقدام زمر تكفيرية مدعية على تفجير مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء، فضلا عن القتل على الهوية والانتماء المناطقي، أقول على الرغم من ذلك كله لم يصدر أي بيان رسمي من المرجعية الدينية العليا في النجف أي تبن للعنف أو الرد بالمثل أو اتهام الطائفة السنية بتلك الأعمال الشائنة التي يبرأ منها الإسلام براءة الذئب من دم يوسف.

ومن هنا نقول إننا بحاجة لمزيد من العمل على تبني هذه الثقافة المتسامحة التي تقبل الآخر وتنفتح عليه وتحاوره وتسمع منه ن ولعل المشروع الثقافي المقترح لاتخاذ النجف الأشرف عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٢م يعد فرصة حقيقية ينبغي العمل على استثمارها لتعزيز هذا المنهج المتسامح لتجاوز هذا التحدي الكبير الذي يحاول تشويه الصورة النجفية وتفريغها من محتواها وتقديمها للعالم من اجل أن يقال إن صورة الإسلام بجميع أطيافه متطرفة لأن اليوم وللأسف الكبير قدم الإسلام إلى العالم من كوة ضيقة جدا لا يمكن أن

تسع نوره وفيض عطائه قدم من ظلام التطرف والجهل والمغالاة، لذلك علينا جميعا تقع هذه المسؤولية لإعادة إنتاج الثقافة الإسلامية بشكل عصري يواكب الحضارة ويحافظ على الثابت منها.

ثالثاً: التقليدية والعلوم المعاصرة

أعني بالتقليدية النمط السائد الرتيب في تفاصيل الحياة من المؤسسات التعليمية المختلفة إلى المؤسسات الإدارية الأخرى، تلك الرتابة التي تقف دائما بوجه ثقافة التجديد، على الرغم من أن الثقافة أصبحت اليوم أكثر أهمية من الاقتصاد في قيادة التغيير الاجتماعي كما يذهب إلى ذلك بعض منظري ما بعد الحداثة[١٦]. ولابد للمتغيرات من أن تجد لها منفذا مهما كانت أبراج الحماية والوصاية المفروضة مرتفعة، والخشية من إنتاج نمط ثقافي مشوه نتيجة هذا الفصل المتعسف بين ما هو ذاتي أصيل وبين ما هو دخيل دون أن يكون هناك معيار واضح ومتفق عليه لما هو أصيل وما هو دخيل[١٧].

ومن المعروف أن النجف مدينة كلاسيكية تعلي من شأن التقاليد المحافظة وتقف من كل جديد وقفة الحذر الشاك، بل وتعد في بعض الأحيان المجددين خارجين على تقاليدها ومنتهكين لحرمتها، وهنا أذكر على سبيل المثال حين شرع المعنيون في افتتاح مدرسة للبنات عام ١٩٢٩م شككت بعض الجهات الدينية المتشددة في النجف وأرادوا منعها بحجة المفسدة المترتبة على تعليم البنات على الرغم من شدة الحاجة إليها وإلحاح المجتمع النجفي على فتحها، ولكن هذه الرغبة اصطدمت بمعارضة بعض العلماء، وقد أيد الشاعر النجفي الكبير محمد مهدي الجواهري ذلك المشروع في قصيدة عنوانها يحكي مضمونها (علموها) ومطلعها[١٨]:

علموهـــا فقـــد كفـــاكم شـــنارا وكفاهـــا أن تحســـب العلـــم عـــارا

وكهانا من التقهقر أنا ... لم نعالج حتى الأمور الصغارا

هذه حالنا على حين كادت ... أمم الغرب تسبق الأقدارا

أنجب الشرق جامدا يحسب ... المرأة عارا وأنجبت طيارا

تحكم البرلمان من أمم ... الدنيا دساء تمثل الأقطارا

ودساء العراق تمنع أن ... ترسم خطا أو تقرأ الأسفارا

وحين تطورت معارضة المناهضين لفتح هذا المشروع إلى مقاومة شديدة لابسة رداء الدين صعد الجواهري من خطابه فهاجمهم بشدة في قصيدته (الرجعيون) ونال فيها من المتمسحين بلبوس الدين غير ناظرين إلى المستقبل فقال[١٩]:

ستبقى طويلا هذه الأزمات ... إذا لم تقصر عمرها الصدمات

إذا لم ينلها مصلحون بواسل ... جريئون فيما يدعون كفاة

وهكذا - لهذا وغيره من المواقف الجريئة - عد الجواهري في الخاطر النجفي المحافظ خارجا على العادات الدينية وتقاليدها، على الرغم، من كونه من أبناء الاتجاه الديني ومرجعيته، فجده الذي تسمت الأسرة باسم كتابه (جواهر الكلام) الشيخ محمد حسن النجفي مرجع كبير في النجف في زمانه.

ولست أشك اليوم في أن في النجف اجتماعيا ودينيا شريحة واسعة من الذين يوفقون بين التقاليد الدينية الثابتة وبين المعاصرة، وبما يتساوق مع عصرنة الحياة، وينسجم وتطلعات الجيل الجديد، وأستطيع أن أزعم أن هذا التيار يمثل أكثرية صامتة من المثقفين الذين يأبون أن يكونوا في آخر الركب، ولكن مشكلة هؤلاء أنهم صامتون، ينأون بأنفسهم بسبب الحذر المبالغ به عن الخوض في سجالات المنتديات الثقافية ومجادلاتها، ربما بسبب رغبتهم في

المحافظة على مودة الجمهور البسيط المنساق مع الخط التقليدي الثابت. ولا ريب في أن ذلك ينشئ خطابا يحمل وجهين مزدوجين من حيث يقصد أو لا يقصد، خطابا منشدا إلى ضرورة المحافظة على القديم وثوابته، وآخر ينطلق من أسر القديم الثابت إلى الجديد في بنياته ووسائله.

وصحيح إن عصر الاتصالات الحديثة دخل المؤسسات الدينية المختلفة في النجف من حوزات علمية ومكتبات دينية ومدارس ومراكز تعليم وإن جاء بوقت متأخر، مثلما ولج في مدارسها وجامعاتها، ولكن التعامل مع ذلك يجري بشكل مقنن تماما، وبحذر شديد. ومما هو مسكوت عنه، حجم الهوة بين رجال الدين في النجف بشكل عام والأكاديميين، فمما ليس بخاف على أحد نظرة بعض المحسوبين على الحوزات الدينية نظرة ريبة وتشكيك في التعليم الأكاديمي، منطلقين من فلسفة غير مكتومة تلخصه بأنه تعليم دنيوي، لا يمت إلى الله بسبب، وأن اشرف العلوم الفقه، وغيره يبقى شيئا ثانويا لا يدخل الجنة ولا يقي من النار.ولعل مما يخشى منه في النجف اليوم - على مستوى الخطاب الديني المتشدد - أن تتحول الجامعات الأكاديمية في المستقبل إلى جامعات رجالية وأخرى نسائية، لمنع الاختلاط بين الجنسين تحت ذريعة التشكيك دائما في اجتماعهما، حتى لو كان ذلك تحت مظلة العلم في الكليات والأقسام العلمية.

رابعاً: البناء والعمران

إن جميع المظاهر الثقافية السابقة رتبت أسبقياتها بحسب خطورتها، وأكثرها معنوي يتعلق بالموضوع والمضمون، وتغييرهما ليس بالأمر السهل، أما المظهر الأخير أو على الأصح التحدي الأخير فهو يتعلق بالشكل الخارجي للمدينة، إنه البناء والعمران - بوصفهما اليوم جزءا عظيما من ثقافة العالم المعاصر - وهو وإن كان يشكل تحديا إلا أنه سهل بالمقارنة إلى ما ذكرنا،

والمعركة فيه معركة مع الزمن والفساد المستشري في أوصال العراق الجديد ومفاصله الإدارية والحيوية. والحديث عن الفساد الإداري والمالي حديث ذو شجون فهو ليس وليد الساعة بل تمتد جذوره إلى أبعد من ذلك بكثير بعقدي الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي في سنوات الحصار الطويلة، ويمكن أن أزعم أن هذه الثقافة المنحرفة من ابتداعات النظام المقبور وابتكاراته لتخزينها قنابل موقوتة تحرق الأخضر واليابس في ساعات المحنة التي تمر عليه، فقد كان كثيرا ما يؤدلج بسياسة الأرض المحروقة إذا ما أرغم على ترك السلطة، حتى إذا تغير النظام وولى استمر متفاقما على هذا الحال وزكمت نتانته الأنوف ليشمل الحيتان بتعبيرنا العامي أي كبار المسؤولين والصفقات الكبيرة على حساب الفرد المسكين. ولعل الأرقام التي تقدمها هيئات النزاهة والرقابة والشفافية في العراق الجديد كفيلة بدعم ما نقول ومهولة تبعث على اليأس من معالجة هذه الآفة.

وما جرني إلى الحديث عن الفساد هو الحديث عن البناء والعمران في مدينة النجف، فهذه المدينة التجارية المهمة ذات السياحة الدينية التي لا تنقطع على مدار السنة شهدت عزلة متعمدة في العقود السابقة وإقصاء طائفيا منع من تأهيلها تأهيلا لائقا بكونها عاصمة العالم الشيعي وحاضنة لأعظم شخصية في الإسلام بعد النبي محمد ﷺ هو الإمام علي عليه السلام. فليس بها أي مقومات المدينة الحديثة العصرية من الفنادق الكبرى التي يمكن استقبال الوفود الخاصة أو الشوارع الكثيرة أو الملاعب الرياضية أو المراكز الثقافية، ولولا الطبيعة الديموغرافية لسكان النجف المحبة للثقافة من بسطاء الناس إلى مثقفيهم، فضلا عن طبيعة الحوزة الدينية وموسوعيتها - أقول لو لا ذلك كله - لما أمكن لهذه المدينة البسيطة جدا بعمرانها أن تنهض بالثقافة الإسلامية هذا النهوض وأن تثبت أمام التيارات المعرفية الهائلة المدعومة بالمال والسلطة، لأن النجف في

حقيقة إنشائها أشبه بجامعة علمية كبرى بانتشار مدارسها الدينية الكبيرة بين أزقتها الضيقة وكثرة مكتباتها العامرة أسبغت عليها هيبة العلم وصمته الذي يلحظ في ساعات الصباح الأولى مع بدء الدرس المعرفي الذي يغلب عليه صفة الفقه ومعارفه وعلومه. هذه هي النجف القديمة قبل أن تتسع وتتطور أحياؤها، النجف القديمة المسورة التي تحيط بأربعة أحياء فقط تدور حول ضريح الإمام علي عليه السلام بشكل حان يشعر أهلها بهذا القرب الروحي من هذا العظيم الثاوي في ترابها.

أما اليوم فلا شك في أن النجف تشهد حركة عمران ملموس أثره، ولكنها حركة بطيئة تفتقر إلى الدقة والخبرة وتنخر فيها آفة الفساد التي تحاول إيقافها بالكامل، فضلاً عن غياب الاستراتيجية الكاملة الجامعة لأجزاء الصورة العمرانية، فالنجف عاصمة مهمة للثقافة العراقية والعالم الإسلامي لمحبي أهل البيت، والعاصمة كما هو الراسخ في الأذهان يتوقع هي الأكثر تطوراً وازدهارا من جهة بناياتها الشاهقة وأسواقها العامرة الكبيرة، وشوارعها العريضة التي تتوزع الخضرة على جانبيها، وفنادقها الحديثة وفوق ذلك مؤسساتها الثقافية المتخصصة بالقاعات والمعارض المعنية بالفنون والمسرح وأشكال الفن المختلفة. ذلك كله وأكثر مما تحتاجه هذه المدينة لتتمكن من مواجهة هذا التحدي، وهو ليس سهلا، ومن الخطأ الرضا بما عندنا بحجة تراثنا يغنينا عن العمران الشاهق، لأن ثقافة اليوم لم تعد في الكتاب وحده بل أصبحت في انعكاس اثر الكتاب على السلوك والنظافة والبناء، وإذا كنا نتغنى دائما بحضارتنا بأننا أقدم الحضارات وأعرقها في التاريخ فينبغي أن يكون لذلك كله أثرا علينا في كل شيء بما فيه البناء والعمران لأنهما جمال حضارتنا وديننا وشكله البهي.

الخاتمة:ـ

بدا مما سبق جملة من الخلاصات يمكن عرضها بما يأتي:

١- تمتلك النجف مقومات المدينة العالمية من جهات عدة في المجالات الثقافية يقف على رأسها التسامح في خطابها الديني وقدرتها على استيعاب الآخر وقبوله.

٢- تتجلى جملة المظاهر الثقافية المعاصرة بشكل تحديات في أربعة عناصر هي على التوالي: العولمة، والانفتاح على الآخر، والتقليدية والعلوم المعاصرة، والبناء والعمران.

٣- تعد مدينة النجف الأشرف عاصمة حقيقية للتقارب بين أبناء الديانة الواحدة،كونها تستلهم قيم التسامح من أهل بيت النبوة عليهم السلام.

هوامش البحث

(١) تاج العروس، الزبيدي: ٣٥٠/٦، وينظر: معجم البلدان للحموي: ٧/ ٢٦٦

(٢) ظ. ماضي النجف وحاضرها، جعفر محبوبة: ١٣/١، وينظر أيضاً:دراسات السيد سامي البدري.

(٣) ظ. معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٣٣١/١، تاج العروس، الزبيدي: ٢٠/ ٢٦٣، نفس الرحمن في فضائل سلمان، الميرزا الطبرسي: ٢٦٣، تاريخ الكوفة، السيد البراقي: ١٧٩

(٤) مدينة النجف، محمد علي جعفر التميمي: ٤٧

(٥) ظ.معجم ما استعجم، البكري: ٥٧٩/٢

(٦) ديوان أبي نواس: ٢٦٤/١

(٧) ديوان الوائلي:١/ ١٠٢

(٨) ظ.الثقافة العربية في عصر العولمة، تركي الحمد: ٧

(٩) ظ. العولمة والثقافة، جون توملينسون: ١١
(١٠) فخ العولمة، هانس - بيتر مارتن - هارالد شومان: ١١
(١١) ظ.المصدر نفسه: ١٢
(١٢) مدينة النجف، محمد علي جعفر التميمي: ٦
(١٣) ظ. اللغة العربية وتحديات العصر: بثلاثة أجزاء صدر عام ٢٠١٠ في مطبعة مؤسسة الصادق في عمان.
(١٤) الحجرات: ١٣
(١٥) الكافرون: ٦
(١٦) ظ.من الحداثة إلى العولمة، ج.تيمونزروبيرتس وإيمي هايت: ٢٥
(١٧) ظ.الثقافة العربية في عصر العولمة، تركي الحمد: ١٠٢
(١٨) ظ. ديوان الجواهري، الأعمال الكاملة: ٢٠٤
(١٩) ظ. المصدر نفسه: ٢٠٦

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت - ١٩٩٤م
- تاريخ الكوفة، السيد البراقي (ت١٣٣٢هـ)، تحقيق: ماجد أحمد العطية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- الثقافة العربية في عصر العولمة، تركي الحمد، دار الساقي، الطبعة الأولى، بيروت - ١٩٩٩م.
- ديوان الجواهري, الأعمال الكاملة، للشاعر محمد مهدي الجواهري - دار الحرية للطباعة والنشر, الطبعة الثانية - بغداد ٢٠٠١م.
- ديوان الشيخ أحمد الوائلي، بدون تاريخ أو مكان الطبع.
- شرح ديوان أبي نواس.ضبط معانيه وشروحه: إيليا الحاوي، الشركة العالمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، تأليف: د.جونتوملينسون، ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة،أغسطس- ٢٠٠٨م.

- فخ العولمة، الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، هانس - بيتر مارتن - هارالد شومان، ترجمة: د.عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: أ.د.رمزي فكري، سلسلة عالم المعرفة، أكتوبر - ١٩٩٨م.
- اللغة العربية وتحديات العصر،جامعة الكوفة، كلية التربية الأساسية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م، مطبعة مؤسسة الصادق- عمان.
- ماضي النجف وحاضرها، الشيخ جعفر محبوبة.
- مدينة النجف - محمد علي جعفر التميمي، الطبعة الأولى، ١٣٧٢هـ، مطبعة دار النشر والتأليف، النجف.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث، بيروت- ١٩٧٩م.
- معجم ما استعجم، البكري الأندلسي، تحقيق: مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت - ١٩٨٣.
- من الحداثة إلى العولمة، تأليف: ج. تيمونزروبيرتس وإيمي هايت، ترجمة: سمر الشيشكلي، مراجعة: محمود ماجد عمر، سلسلة عالم المعرفة، نوفمبر - ٢٠٠٤م.
- نفس الرحمن في فضائل سلمان، ميرزا حسين الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق: جواد القيومي، الطبعة الأولى، مطبعة بكوئن، ١٤١١هـ. abbasalfahham@yahoo.com